الموضوع في الأدب العربي (١)

يتحدث النقاد والأدباء عن الفن الأدبي ، وهل ينبغي أن يكون المعول في تقدير قيمة العمل الأدبي على ما يمتاز به في أسلوبه ، أو أن يكون المعول في ذلك التقدير على قيمة موضوعه كذلك بالنسبة إلى المجتمع وإلى الانسانية ، ولست أقصد بحديثي هذا أن أتعرض لما يسوقه طرفا المناقشة من الحجج ، فهي معروفة كثرت المجادلات فيها . غير أن الذي يبدو من هذه الأحاديث أن موطن الخلاف بين الجانبين المتناقشين معنى آخر خفي لم يظهر واضحاً في ثنايا المناقشات فأردت في كلمتي هذه أن أحاول إظهار هذا المعنى الخفي بتوجيه بعض نظرات الى أدبنا العربي لعلها تستبين حقيقة الصلة بين الموضوع في الأدب وبين الحال التي كان عليها المجتمع في العصور المختلفة ، فان الكشف عن تلك الحقيقة جدير بأن يزيل كثيراً من الغموض الذي يحيط ببعض ما يبدى من الآراء .

ونقطة البداية التي أبدأ منها هي الإشارة التي أوردها الزميل الجليل الأستاذ محمود تيمور في حديث سابق له حين ذهب الى أن الأديب لا يستطيع إلا أن يكون فرداً في المجتمع ، وأن انتاجه لا يمكن الا أن يكون متصلاً بالمجتمع . وإني أضيف الى هذه الاشارة معنى آخر وهو أن الانتاج لا يمكن أن يسمى إنتاجاً أدبياً إلا اذا توافر له الأسلوب الأدبي الفني . ومعنى هذا

---

(١) بحث للأستاذ محمد فريد أبو حديد قدم الى مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في دورة سنة ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أن كل انتاج أدبي لا بد أن يتوافر فيه الاسلوب الفني والاتصال بالمجتمع معاً . وعلى هذا فان الشعار الذي تدور المناقشات حوله وهو « هل الفن للفن أم هو للمجتمع » . يبدو شعاراً خالياً من الدلالة اذا كان المقصود منه المقابلة بين قيمتي الأسلوب والموضوع في العمل الفني ، لأن القيمتين لا بد أن تتوافرا معاً لكل عمل فني .

وإذن يكون المعنى الحقيقي الذي تدور المناقشات حوله هو أن بعض النقاد يذهبون الى أن الأديب مطلق الحرية في اختيار موضوع إنتاجه سواء كان مما يقبله المجتمع ويرضى مثله العليا وقيمه المعنوية أو كان مما يرفضه المجتمع وينكر مثله وقيمه ، على حين أن البعض الآخر منهم يذهبون الى أن الأديب الحق هو الذي يختار موضوع إنتاجه مما يقبله المجتمع ويعزز قيمه ومثله العليا .

ولا يخفى ما يحيط بالرأي في كل من الجانبين من غموض يستحسن القاء بعض الضوء عليه حتى يمكن أن يسلم من التعثر . وقد رأيت أنه مما قد ينير سبيل الرأي أن أستعرض الموضوع الشعري في عصور ثلاثة وهي العصر الجاهلي والإسلامي والاموي والعباسي الأول ، وأن أختار لذلك الاستعراض ما يمثل الاتجاه الأكبر في كل من هذه العصور وهي تمثل ثلاثة أدوار من مراحل التطور الحضاري للمجتمع العربي .

وأما النتائج التي يمكن الوصول اليها من هذا الاستعراض فقد رأيت من المستحسن تأجيلها الى نهاية الحديث .

كانت حياة أجدادنا العرب في العصر الجاهلي مطبوعة بطابع بيئتهم الصحراوية اذا استثنينا بعض البقاع الخصبة في اليمن والمدن المتصلة بالعمران كالحيرة .

وكان النظام القبلي دعامة حياتهم بصفة عامة ، وأول مميز لهذا النظام هو الولاء الكامل المتبادل بين الفرد وقبيلته ، وهذا الولاء هو الاتصال النفسي بين الفرد ومجتمعه . فكان الشاعر العربي فرداً من قبيلته ويصدر في مشاعره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفي إنشاده عن شعوره القوي بالصلة التي تربطه بقبيلته . فهو يتغنى بمآثر قومه وبانتصاراتهم في الصراع مع القبائل الأخرى ويشيد بفضل أبطالهم ويفاخر ببطولته فيهم ، وقد يهجو خصومهم أو يعاتب حلفاءهم ، وهو في كل الأحوال يعبر عن مشاعره كفرد متصل أتم الاتصال بمجتمعه .

وقد خلف لنا العصر الجاهلي بعض صور الدفعات العاطفية القوية التي أثارتها مواقف قومه ومواقفه في قومه ، وهي تعبر لنا تعبيراً صادقاً عن معاني الصداقة والعداوة وعن المحبة والبغضاء ، وعن الإجلال والازدراء ، وعن الشجاعة والمروءة وأضدادهما ، وفيها ينطوي سجل حافل بما كان للعرب من قيم فردية واجتماعية تتصل بمسالك الأفراد والجماعات في الحياة الخاصة والعامة .

فالشعر الجاهلي مثال للانتاج الأدبي الذي يعكس لنا تجاوباً كاملاً بين الأديب وبيئته البشرية ... وإلى جانب هذه الخاصة كانت طبيعة الصحراء لا تكاد تسمح للعربي بما يرفه عنه في حياته القلقة المتحفزة للصراع إلا من ناحيتين يتنسم منهما البهجة والأنس : أولهما جمال المرأة ، والإيناس الذي يجده الفرد في مجالس السمر بين الأصدقاء ، وما كان يشيع فيهم من النشوة على أثر معاطاتهم الخمر . وأما الناحية الأخرى فكانت مشاهد الطبيعة الطلقة التي تبعث السلوى الى قلب المحزون والمهموم . وكانت الحياة أمام العربي حياة حرة يتعامل فيها أحرار لا يعترفون بالقيود ولا يطيقونها ، فلم يكن فيها حدود غير ما تعارف عليه المجتمع من قواعد الولاء بالنسبة الى القبيلة وقواعد الشرف والمروءة بالنسبة الى الفرد . وكان للمرأة العربية في الجاهلية مكانة الفرد الحر كالرجل ولهذا كان الحب بين الرجل والمرأة يتسم بالتقدير المتبادل بينهما ، واذا استثنينا بعض ما جاء في قصائد بعض الشعراء كالأعشى وامرئ القيس أمكن أن نقول إن شعر الغزل الجاهلي يمتاز باحلال المرأة الحرة محلاً رفيعاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في قلب صاحبها ، ففيه من صور الحب الرفيع ما يسمو الى أعلى مراتب الشعر الغنائي في الآداب العالمية .

ومن اليسير أن ندرك العلة في انحراف أمثال الأعشى وامرىء القيس أحياناً عن مذهب شعراء العرب الجاهليين في الحب . فقد كان الأعشى شاعراً مرتزقاً جوالاً في الآفاق يتردد بين عمان وحمص وأوريشلم وذهب الى النجاشي في أرضه والى أرض النبيط وأرض العجم ، ونزل بنجران وأعالي السرو في اليمن . وكان في هذه البلاد يتصل بالحياة المترفة وما فيها من معاهد اللهو والمجون الحضرية . وأما امرؤ القيس فكان منذ مطلع شبابه ضحية لالتواءات نفسية كثيرة أدت به الى الخروج على قومه والانطلاق في الأرض شريداً مع طائفة من الخلعاء الذين تبرأت منهم قبائلهم لخروجهم على ما تعارفوا عليه .

فكان لمكانة المرأة عند العربي أثر واضح في الموضوع الشعري فكان الشاعر يصف وقوفه بديار الحبيبة إذا هي نزحت عنها ويتغنى بأناشيد من أصدق ما صدر عن الشعراء في عصر من العصور وهو في تعبيره الساذج الصادق عن مشاعره في هذه الوقفات يصور لنا لوحات فيها أبدع تمثيل للعاطفة الإنسانية الأولى .

وكان انطلاق العربي في الصحراء يتيح له أن يرى بعينه الدقيقة الملاحظة ما كان يضطرب في الصحراء من حياة الحيوان عامة وحياة الوحش خاصة ، وما كان يجاهد الطبيعة القاسية من نبات أو زهر ، فكان يصور في شعره ما يحسه من بهجة حين يرى الزهرة اليانعة بين الرمال وحين يرى الظبية تحنو على وليدها أو تنفر ناجية اذا أحست الخوف . وكان يصور ما تجيش به نفسه من الرحمة أو الإعجاب حين يرى الصراع بين الأحياء كالبقرة الوحشية حين تستبسل في الدفاع عن نفسها ضد كلاب الصيد أو الذئاب التي تحتوشها أو كالعير الوحشي حين يدفع أتانه دفعاً شديداً نحو الماء اذا اشتد عطشها . فتصوير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مشاهد الطبيعة الطلقة من أروع ما سجله الشعر في لغة من اللغات ، ويمتاز دائماً بالصدق وقوة ما فيه من تعبير عن العاطفة .

أما التغني بمجالس الخمر فكان في أكثر الحالات ـ اذا لم نقل فيها جميعاً ـ لا يزيد على التمهيد لوصف ما يمتاز به الشاعر من الفتوة والكرم والبطولة في مواقع القتال .

فالظاهرة العامة للشعر الجاهلي انه كان ينهج مما تبعثه الحياة في الشاعر من الأحاسيس وهي جميعاً متصلة أوثق الاتصال ببيئته وبولائه لقومه وتعلقه بقيم السلوك الفردي والاجتماعي التي تعارف عليها قومه وألفتها عليهم طبيعة قاهرة ونظام اجتماعي مستقر . وقلما نجد في الشعر الجاهلي ما ينم عن انطواء الشاعر في نفسه أو انعزاله عن قومه أو الحقد عليهم ، حتى إن الهجاء الجاهلي نفسه لم يكن سوى تصوير نقدي يوجه الى قوم أو الى فرد لخروجه على القيم السلوكية الفاضلة في نظر أهل العصر . فلم يكن فيه الا هفوات قليلة من المثالب المقذعة المسفة التي كثرت في شعر العصور الأخرى .

وكان الأعشى من أكثر الشعراء هجاء ولكنا لا نكاد نرى في هجائه ـ وهو المرتزق بالشعر ـ ما يخرج عن حدود النقد الذي أشرت اليها . وكان من أشد أبيانه في الهجاء وقعاً قوله في علقمة ابن علاثة إذ قال :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

حتى لقد قيل ان علقمة بكى حين سمع ذلك البيت وجعل يقول في الأعشى : « قاتله الله ! أنحن كذلك ؟ » .

وقد نجد في الشعر الجاهلي أمثلة للتأمل الفكري المجرد . وأكثر ما نجد ذلك في شعراء الحضر مثل عدي بن زيد أو من في حكمهم مثل الأعشى ، وذلك التفكير لا يتعدى حدود العبر الدالة على زوال الحياة وغرورها وتداول المجد بين الدول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غير أن شعر الجاهليين لا يخلو من تأمل الحياة من جانبها الواقعي المتصل بالحياة في المجتمع ولإيضاح ما نقصد نورد مثالاً واحداً وهو قول دريد بن الصمة في رثاء أخيه فهو لا يقتصر على وصف بطولة أخيه ووصف إقدامه هو حين اندفع بين الفرسان للدفاع عنه ، بل يعرج على معاني الولاء للقبيلة والتضامن معها في رشدها وغيها ويشير الى المثل العليا التي كان أخوه يتمسك بها فهو قليل الشكي للمصيبات ، حافظ من اليوم أعقاب الأحاديث في غد ، وهو قنوع يكتفي بأقل الزاد ، والزاد حاضر ولا يعبأ بما يلبس مع أنه كريم يجود بما في يده ويزبده سماحاً واتلافاً لماله تنكر الدهر له واشتداد الظروف عليه .

فالشعر الجاهلي يمثل أدب عصر من عصور الحياة العربية كان يسوده التضامن والولاء بين الفرد والمجتمع وكان لذلك يتصف بالصدق في تصوير العواطف كما يتصف بالانطلاق النفسي الذي لا يشوبه التواء أو انطواء .

ومما له صلة بهذا المعنى أن شعر صعاليك العرب أنفسهم لا يشذ عن أنماط الشعر الجاهلي عامة فهؤلاء كانوا مع خروجهم عن مجتمعهم لم يخرجوا عليه بل كانوا يتمسكون بمثله العليا في الكرم والشجاعة والمروءة ومن أمثلتهم عروة بن الورد والشنفري وتأبط شراً .

وقد جاء الإسلام فأضاف الى الحياة العربية إضافات كثيرة من القيم الإنسانية والمثل العليا وأنكر من قيم الجاهلية ما كان يشوه حياتها كالمبالغة في القسوة والصرامة والاندفاع مع شعور العصبية القبلية الضيقة كما أنكر الخمر وأحاط علاقة الرجل بالمرأة بطائفة من الحدود التي تكفل سلامتها من العبث . ثم وجه العرب الى حياة جديدة قوامها الوحدة بين القبائل والمساواة بين الأفراد من كل الطبقات والأجناس ، وجعل مقياس التفاضل بينهم ما يتمتع به كل منهم من صفات الإنسانية ، وحملهم مسئولية نشر دعوة الحرية والمساواة في أمم العالم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فشغل العرب حيناً بمواجهة الدين الجديد حتى دخلوا فيه ثم شغلوا حيناً بمواجهة الحوادث الكبرى التي أعقبت موت النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم خرجوا من جزيرتهم في بعوث الفتح لنشر رسالة الإسلام فكانت هذه المشاغل سبباً في قلة ما روي من الشعر العربي مدة تقرب من ثلاثين أو أربعين عاماً .

ومن أظهر آثار الإسلام في شعر هذه المدة أنه خلا من ذكر الخمر ومن التشبيب بالمرأة ، حتى لقد قيل أن أحد الشعراء وهو حميد بن ثور الهلالي أراد أن يتغنى بحبه فكنى عن الحبيبة بالسرحة فقال .

سقى السرحة المحلال والأبطح الذي به الشرى غيث مدجن وبروق

وقد أنف أهل المرأة من ذكره لها مع إخفائها وراء (السرحة) فعابوه بذلك فرد عليهم قائلاً :

تجرم أهلوها لأن كنت مشعرا جنوناً بها يا طول هذا التجرم
وما لي من ذنب اليهم علمته سوى أنني قد قلت يا سرحة اسلمي
بلى فاسلمي ثم اسلمي ثم فاسلمي ثلاث تحيات وان لم تكلمي

وكان الشعراء من العرب بغير شك لا ينقطعون عن الإنشاد حين تتحرك نفوسهم في موقف من المواقف وهم ينساحون في الأرض على بعوث الفتح ، ولكن ما وصل الينا من هذه المقطوعات قليل وهو يشبه الشعر الجاهلي في صدقه ودلالته على الولاء الكامل بين الفرد ومجتمعه .

وجاءت دولة بني أمية بعد نحو أربعين عاماً من الهجرة النبوية وكان لها أثر كبير في توجيه الأمة العربية الى وجهة جديدة ، وكان للأحداث التاريخية الكبرى التي وقعت في مدة هذه الدولة أثر كبير في توجيه الشعر كذلك من ناحية موضوعه .

ومن الظواهر الجديدة التي طرأت على الشعر العربي عند ذلك أن ولاء كثير من الشعراء انصرف الى حزب من الأحزاب التي ينتمون اليها ، بعد أن كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولاء الشاعر من قبل متجهاً الى قبيلته وما كان أكثر الأحزاب المتطاحنة طوال ذلك العصر .

ولم يكن ولاء الشاعر الأموي لحزبه مثل ولاء الشاعر الجاهلي لقبيلته فقد كان الشاعر الجاهلي ينشد منطلقاً في التعبير عن مشاعره غير متكلف فيه ، كما كان في العادة غير مرتزق بشعره . ولكن الشاعر الأموي كان في كثير من الأحوال مرتزقاً في ولائه لحزبه . وكان لذلك يعوض عن نقص حرارة الولاء بزيادة التأنق وبزيادة العنف في تعبيره سواء في ذلك المغالاة عند المدح والافذاع عند الهجاء ، فخرج كلا المدح والهجاء عن حدود الصدق ، وبعد أن كانت المفاخرة بشواهد الحوادث الجارية أصبحت تعتمد على ذكر المآثر السابقة لأبطال الجاهلية الذين ينتمي المفاخر الى قبائلهم . ومن هناك أحيا الشعر عصبية القبائل بعد أن نهى الإسلام عنها ووجه العرب الى الوحدة الشاملة ، وقصائد الشعراء الثلاثة الكبار ـ جرير والأخطل والفرزدق ـ ملأى بغبار المعارك القبلية . على أن ولاء الشعراء للأحزاب لم يكن ثابتاً في كثير من الأحوال لأنهم كانوا مرتزقة بالشعر ولأن الأحزاب كانت عرضة للتغير . فقيل مثلاً ان جريراً لم يكن موالياً لبني أمية في مطلع حياته ثم توسل بأحد الولاة كي يوصله الى الحجاج . ثم توسل بالحجاج ليوصله الى عبد الملك بن مروان ، فوجد عند خلفاء بني أمية ما يغنيه عن التذبذب بين الأحزاب .

ولكن النابغة الجعدي وعبد الله بن قيس الرقيات لم يثبتا على الانتصار لحزب واحد واسماعيل بن يسار النسائي انقطع أولاً الى ابن الزبير ثم تحول الى بني أمية ولزم فيما بعد الوليد بن يزيد . وطريح ابن عبيد الثقفي انقطع أولاً الى الوليد بن يزيد وبالغ في مدحه حتى قال له :

لو قلت للسيل دع طريقك والموج عليه كالهَضْب يعتلج
لساخ وارتد أو لكان له في سائر الأرض عنك منعرج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد عاش حتى أدرك عهد أبي جعفر المنصور وأراد التقرب منه فسأله أبو جعفر عن هذين البيتين فقال انه كان يرفع بدبه الى الله تعالى عندما أنشدهما موجهاً خطابه اليه ولكن أبا جعفر لم يقربه اليه . وكان من الطبيعي أن ينقطع أكثر الشعراء في ذلك العصر الى بني أمية طلباً لما عندهم من الجزاء ، فقد انقطع عبد الرحمن بن أرطاة الى الوليد بن عثمان بن عفان ، وانقطع نابغة بني شيبان الى عبد الملك بن مروان وهجا خصمه ابن الزبير ، وانقطع الأخطل ونصيب الى مدح بني أمية حتى كان سليمان بن عبد الملك يفضله على الفرزدق ، ولزم الحكم بن عبدل الأسدي بشر بن مروان ، وكانت قلة من الشعراء تخلص للعلويين ومنهم السيد الحميري وقد غالى في ذم السلف تعصباً لهم حتى تحرج الرواة من رواية شعره .

فاذا تركنا الشعر السياسي أمكن أن ندرك مقدار ما طرأ على المجتمع العربي من التبدل الاجتماعي في العصر الأموي فقد نشأت طبقة من أبناء الأعيان وخاصة في مدن الحجاز ، توفرت لهم وسائل الحياة الناعمة ويسرت لهم مكانتهم الاجتماعية الانقطاع عن العمل ، فانصرف الشعراء منهم الى وصف مغامراتهم اللاهية . وكان رائد هؤلاء عمر بن أبي ربيعة ومنهم ابن ابي عتيق وهو من سلالة أبي بكر الصديق والعرجي ، وهو من سلالة عثمان بن عفان ، والأحوص وهو من سلالة عاصم بن ثابت بن الأقلح . فكانوا يتعرضون لزوجات الأمراء والأعيان وبناتهم ويذكرونهن في شعرهم وأذاعوا ذلك الشعر عن طريق الغناء وما كان أكثر المغنين عند ذلك من رجال ونساء . ومما يلاحظ أن هؤلاء الشعراء كانوا من أبناء السراري لا من أبناء الحرائر من عقائل الأسر العربية الخالصة ، فيمكن أن يقال انهم لم ينشأوا على ما اتجه اليه المجتمع الاسلامي الجديد من تحفظ نحو المرأة على أنه من الممكن كذلك أن يعزى انقطاع هؤلاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للشعر الغزلي الى أسباب سياسية فيحكى مثلاً أن سليمان بن عبد الملك سأل ابن أبي ربيعة يوماً عن سبب امتناعه عن مدحه فأجابه « إني لا أمدح الرجال وإنما أمدح النساء » . فكأن هؤلاء الشعراء أرادوا أن يقطعوا الذريعة الى مدح الخلفاء الأمويين والدعاية لهم بشعرهم فانقطعوا الى شعرهم الغزلي . وتروى عن ابن أبي ربيعة أخبار تدل على أنه كان يشنع أحياناً على خلفاء بني أمية .

غير أنه الى جانب هؤلاء الشعراء أبناء الأعيان كان شعراء آخرون قد انقطعوا لشعر الغزل أو صرفوا اليه كثيراً من اهتمامهم وتخلف لنا من ذلك تراث ضخم ينسب الى مجنون ليلى والى جميل بن معمر صاحب بثينة ومنه ما ورد في أقوال كُثَيِّر ونصيب والصمة القشيري الذي قيل انه هاجر الى طبرستان حزناً على حرمانه من حبيبته وهو يصور حنينه الى معاهد حبه في عينيته المعروفة يقول فيها مخاطباً نفسه :

حننت الى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشعباً كما معا

فما حسن أن تأتي الأمر طائعاً ... وتجزعُ ان داعي الصبابة أسمعا

وقد سما بعض هذا الشعر بالحب الى مرتبة فوق مرتبة الجسد وجعله أقرب الى روحانية المتصوفة مثل قول الشاعر :

واني لأستحييك حتى كأنما ... عليّ بظهر الغيب منك رقيب

على أننا حين نستعرض شعر الغزل الأموي عامة سواء منه ما قاله أبناء الأعيان في مغامراتهم اللاهية أو ما قاله سواهم نستطيع أن نلمح أثر الإسلام في تطهير ذلك الشعر والحيلولة بينه وبين الإسفاف ، وإن كان بعض أهل ذلك العصر قد أنكر بعضه .

وما يقال في هذا المعنى أن يزيد بن معاوية غضب على الشاعر أبي دهبل حين قال في أخته عاتكة بنت معاوية أبياتاً منها قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من لؤلؤ مكنون

غير أن أباه الحكيم لم يوافقه على غضبه ولم يجد في ذلك الشعر ما ينبغي لأحد أن يغضب منه وهناك ظاهرة أخرى جديدة ظهرت لأول مرة في الشعر العربي وهي اتجاه قلة من الشعراء الى الارتزاق بالهجاء لا بالمدح ، مثل ابن ميادة والحطيئة ، ويمكن تعليل هذا بأن الظروف الجديدة أدت الى انفصال بعض طوائف المجتمع عنه وسببت قلة شعورهم بالولاء له . فابن ميادة مثلاً كان ابن جارية بربرية أو صقلبية وكان الحطيئة مطعوناً في نسبه .

وقد ظهر شعور الانفصال عن الحياة العربية في صورة أخرى وهي بدء الانتساب الى العجم والمفاخرة بذلك الانتساب . قال ابن ميادة في بعض شعره :

أليس غلام بين كسرى وظالم بأكرم من نيطت عليه العمائم

وقال اسماعيل بن يسار ـ وهو مولى فارسي :

انما سمي الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الأنساب

اتركي الفخر يا أمام علينا واتركي الجور وانطقي بالصواب

واسألي إن جهلت عنا وعنكم كيف كنا في سالف الأحقاب

اذ نربي بناتنا وتدسون سفاها بناتكم في التراب

ومما يذكر هنا ان ابن يسار هذا سبق الى نوع جديد من الغزل المكشوف بابراز قصص دنيئة الى النساء . ومن أمثلة ذلك قصيدته التي يصف فيها هجومه على بيت امرأة متزوجة وقضاء ليلة معها ويقول في آخرها :

حتى اذا الليل بدا ضوؤه وغابت الجوزاء والمرزم

خرجت والوطء خفي كما ينساب من مكمنه الأرقم

فكان هذا الشعر من أشد ما قيل في هذا العصر جرأة على المحارم . ومما يجب أن نذكره هنا ان الخمر لم ترد إلا قليلاً في شعر هذا العصر اذا استثنينا الأخطل وأبا زبيد وعبد الرحمن بن أرطاة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فالشعر العربي كما يبدو من هذا الاستعراض المجمل يبين ما طرأ على المجتمع العربي من طوارئ أحدثت ثلمة في وحدته الكاملة وأدت الى شيء من الانفصام بين بعض الأفراد ومجتمعهم . ولكنه مع ذلك يدل على أنه بقي متصلاً بالحياة الى حد بعيد متأثراً بها مؤثراً فيها محتفظاً بالولاء له وان كان بعضه ولاء متكلفاً متذبذباً . وقلما نجد في هذا العصر من الشعراء من تبدو على شعرهم دلائل الثورة أو الحقد على المجتمع أو الانعزال عنه والانطواء في أنفسهم شعوراً منهم بأنهم غير شاعرين بالانتماء اليه .

ولا نملك إلا أن نقول ان مكانة الشاعر في العصر الأموي قد هبطت هبوطاً ملحوظاً عن مكانته الاجتماعية في العصر الجاهلي ، فقد أصبح الكثير منهم تابعاً مرتزقاً من سادته لا صديقاً موالياً لقومه .

أما العصر العباسي الأول فقد شهد في الشعر تطوراً أبعد بكثير مما شهده العصر الأموي ، وذلك لأن المجتمع العربي شهد انقلاباً من أشد الانقلابات التي تطرأ على حياة الأمم . فقد أصبح الموالي فيه قوة خطيرة الى حد انهم استطاعوا أن يقوضوا دولة بني أمية ويقيموا بدلها دولة بني العباس وكان من المنتظر أن يتم الانصهار بينهم وبين العرب ويتكون من الجميع أمة عربية واحدة أساسها مثل الاسلام في الحرية والمساواة . ولكن ظروفاً كثيرة لا محل لذكرها هنا حالت دون هذا الانصهار ، فاستمرت العناصر المختلفة في الأمة تعيش جنباً الى جنب وهي شاعرة بتميزها .

وكانت خيبة أمل الموالي عقب انتصارهم واقامتهم للدولة العباسية سبباً في شعورهم بالانفصال عن المجتمع الذي يعيشون فيه .

وكان لذلك الشعور أثر كثير في اتجاه الشعر نحاول أن نتبينه في انتاج ثلاثة من كبار شعراء هذا العصر وهم بشار بن برد وأبو العتاهية وأبو نواس ، وهم جميعاً من الموالي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان بشار مولى إذ كان أبوه مولى احدى سيدات بني عقيل وكانت أمه بغير شك غير عربية وكان أبوه عاملاً فقيراً وهو قد ولد أعمى . وكل هذه عوامل تؤدي الى الالتواء النفسي والشعور بالنقص وبالانعزال عن المجتمع . ولكن بشاراً نشأ كما قال في حجور ثمانين من شيوخ فصحاء بني عقيل فكانت لغته عربية فصيحة خالصة . ودرس العلم في حلقات كبار العلماء والمفكرين ولكنه لم يستقر على مذهب غير الشك . وكان من الطبيعي أن يبدأ حياته الشعرية بالهجاء ، وصرح بأن ذلك وسيلته الى شق طريقه في مجتمع أجنبي عنه . واستمر في حياته يضمر ثورة عنيفة على ذلك المجتمع فلما أعلن ابراهيم بن عبد الله ابن حسن العلوي ثورته على أبي جعفر المنصور سارع بالانضمام اليه وبعث اليه بقصيدة يهاجم فيها أبا جعفر ويخاطبه قائلاً :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم وما سالم عمـا قليل بسالم

غير أن هذه الثورة أخفقت وقبض على ابراهيم وقتل . فخشع بشار وبادر الى تغيير قصيدته وجعل مطلعها هجوماً على أبي مسلم الخراساني الذي قضى عليه أبو جعفر فقال :

أبا مسلم ما طول عيش بدائم .

وفي هذه القصيدة ينطلق بشار مع ثورته مع ابراهيم العلوي فيقول متحمساً :

وخل الهوينى للضعيف ولا تكن نؤوماً فان الحزم ليس بنائم
وما خير كف أمسك الغل اختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وحارب اذا لم تعط إلا ظلامة شبا الحرب خير من قبول المظالم

الى آخر ما قال فيها ، وهي تظهر قوة شعوره الثائر على الدولة وعلى النظام القائم معها .

وظهرت ثورته في نواح أخرى غير السياسة فقد سلك مسلك ابن أبي ربيعة في الغزل وغلا فيه غلواً شديداً ، أو هو سلك مسلك عبد الرحمن بن ارطاة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وزاد فيه مغالاة الى درجة الإفحاش . واتخذ لنفسه مجلساً سماه البردان ، وكان النساء يحضرن اليه . ولا شك في أن أكثرهن كن من الجواري ، حتى لقد هال ذلك كثيراً من المتحفظين من رجال العلم والأدب ، ولكنهم كانوا يخشون هجاءه المقذع فاستعانوا عليه بالخليفة المهدي الذي نهاه عن مسلكه . وكان مذهبه في الحياة قائماً على الشك ويبدو ذلك واضحاً في شعره فمن ذلك قوله :

طبعت على ما فيّ غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما أعقبت إلا التعجبا

وكان في حياته الخاصة على ما يبدو لا يرعى حداً من حدود الأخلاق الإسلامية ومما يدل على مذهبه الإباحي قوله :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فهو يسخر من القضاء ويسخر من القيم الاجتماعية ويذكرنا بمن يزعمون أنهم يتبعون مذهب الوجودية .

وكان يصف عصره بأنه دهر اللئام : ويظهر ضيقه به وتبرمه منه . وظهرت ثورته كذلك في ثورته على العرب وعلى قيمهم ، كما تدل عليه أخباره وبعض أشعاره .

ولا شك أن هذا الروح الثائر الجريء هو الذي حرك عليه خصومه حتى أوقعوا به عند الخليفة المهدي الذي أخذه كما قيل بتهمة الزندقة وأمر بقتله أو باهدار دمه . وقيل ان الخليفة نفسه لم ينج من لسانه فنسب اليه شعر فيه تجريض شديد عليه وهو قوله :

بني أمية هبوا طال نومكم .

كما نسب اليه شعر آخر فيه سبب شنيع له وطعن مقذع عليه . فشعر بشار مثال على ما يكون عليه موضوع الشعر حين يحدث الانفصام بين الشاعر وبين المجتمع الذي يعيش فيه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والشاعر الثاني هو أبو العتاهية . وهو مثل بشار من أبناء الموالي ، وقد نهل الفصاحة من مواليه في بادية الكوفة . غير أنه لم يكن في مثل جرأة بشار ، فلم يستطع أن يشق طريقه في المجتمع بالهجاء ، بل اتجه الى أن يظهر التواضع حتى لقد قيل انه اشتغل بالحجامة اظهاراً لتواضعه . وقد نهل من العلم قدراً ولكنه لم يتخذ لنفسه مذهباً إذ لم يجد من نفسه القدرة على الدفاع عن مذهب يعتقده . فاتجه الى شعر الزهد وجعله وسيلته الامتياز والظهور في المجتمع .

وكان يتوخى السهولة في ذلك الشعر ليكون أسير بين العامة . وما تزال بعض أشعاره تجري الى اليوم على الألسنة . وقليل من الناس من يعرف أنها لأبي العتاهية ، مثل قوله :

إن الفراغ والشباب والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

وقوله :

في سبيل الله أنفسنا كلنا بالموت مرتهن
كل حي عند ميتته حظه من ماله الكفن

وقوله :

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

ومن أقواله في الهجاء :

وما تصنع بالسيف إذا لم تكُ قتالا
فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخالا

ومنه في الشكوى :

حتى اذا انقلب الزمان علي حرت مع الزمان

وفي الغزل :

يا من رأى قبلي قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومنه في التصوف والزهد :

فياعجبا كيف يُعصى الإلـه ... أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

ولكنه كان في قرارة نفسه ثائراً على الحياة والمجتمع . قيل إن أحد الناس سأله ماذا ينقش على خاتمه فأجابه « اكتب لعنة الله على الناس » .

وقال :

برمت بالناس وأخلاقهم ... فصرت أستأنس بالوحده
ما أكثر الناس لعمري وما ... أقلهم في حاصل العدة

ومن قوله :

فتشت ذي الدنيا فليس بها ... أحد أراه لآخر حامدْ
حتى كأنّ الناس كلهم ... قد أفرغوا في قالب واحدْ

وقوله :

فاضرب بطرفك حيث شئت ... فلن ترى إلا بخيلا

وقوله :

أيا أنتن من حش ... على حش إذا تاها
أرى قوماً يتيهون ... حشوشاً رزقوا جاها

والحشّ هو بيت الخلاء طبعاً .

ومما يدل على يأسه من المجتمع :

ليس لمن ليست له حيلة ... موجودة خير من الصبر
فاخط مع الدهر إذا ما خطا ... واجر مع الدهر كما يجري
من سابق الدهر كبا كبوة ... لم يستقلها آخر الدهر

ويبدو أن نظرته المتشائمة بالحياة وما فيها وقسوته في الحكم على عصره هما السر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في انصرافه الى شعر الزهد . فهو من هذه الناحية منفصل عن مجتمعه ثائر عليه وان كانت ثورته من نوع آخر غير ثورة معاصره بشار . فهي ثورة حقد ولكنها مقرونة بالهروب .

والثالث من شعراء هذا العصر أبو نواس . وهو مولى كصاحبيه . وكان منذ طفولته وحيداً إذ خلفه أبوه طفلاً . وكانت أمه على ما قيل ترتزق من حياة غير شريفة صرفتها عن رعايته ، فوزع وقته منذ صغره بين التماس الرزق الضئيل لنفسه وبين الاختلاف الى مجالس العلم والأدب في المسجد الجامع بالبصرة وهي من أكبر مراكز العلم والأدب في عصره . وتقاذفت به ظروف حياته القاسية وهو وحيد من العائل والحامي والعاطف ، فطرحت به هذه الظروف الى الكوفة ، وكانت مركزاً لحياة زاخرة مثل البصرة ، وكان ما زال في سن الشباب ، فألقى نفسه في محيط مائج من دفعات الغرائز ومن تيارات الأفكار المتضادة والعقائد الاجتماعية المتصارعة . وكان لا يستطيع بالطبع أن يجد منفذاً الى طبقة من الناس غير أمثاله من الموالي الذين لا يجدون من تقاليد طبقتهم ما يحول بينهم وبين اقتحام الحدود التي يتجنب أصحاب المروءة اقتحامها .

وقد نزح حيناً الى البادية فعاش بين فصحاء بني أسد كما عاش بشار بين فصحاء بني عقيل وكما عاش أبو العتاهية بين فصحاء بادية الكوفة ثم نزح الى بغداد فواجه الحياة المضطربة فيها كما يواجه الحيوان الصغير الوحيد مخاطر الغابة ، متحدياً دائماً متحفزاً للدفاع عن وجوده في كل لحظة ، ولم يجد لنفسه الطموح فرصة تحقق له ما يرضي طموحه فامتلأت بالخيبة ، ولم يجد متنفساً لطموحه إلا في مجتمع صغير من أمثاله ، رفهوا عن نفوسهم التي امتلأت بشعور الخيبة بالتماس النسيان الذي تبعثه الخمر أو في الاثارة التي تبعثها نشوتها فيهم فكانت ثورتهم على مقدسات المجتمع تشعرهم بشيء من رضى التشفي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وانطلق في حياته هذه ثائراً حانقاً على كل ما يتصل بالمجتمع من دين وعرف ، بل لقد شملت ثورته كل ما خاب في تحقيقه من الاطمئنان الى الحب أو الى العدل . وتمثلت ثورته في اندفاع وحشي الى كل ما يحرمه المجتمع ، وفي سخرية لاذعة قاسية منه ومن قيمه ومثله ، فسخر من الحب ومسخه مسخاً يدل على عمق الهوة التي دفعه اليها يأسه من الحياة . وكان يباهي في شعره بما يندفع اليه من الجموح والقسوة ويجد في هذه المباهاة ارتياحاً كالحاً يشبه ارتياح الشامت في مصاب غيره . وهو يقول في تعبيره عن هذا الشعور عندما أوقع الأذى بأحد أصحابه :

فنلت ما ضن به صاحيا والقلب مني جامح قاس
لا خير في اللذات ما لم يكن صاحبها منكشف الراس

ولست أريد أن أجادل في قيمة شعره من ناحيته الفنية فهذا خارج عن حدود هذا الحديث الذي أتناول فيه الموضوع في الشعر ، غير أني أجد من الضروري أن أشير الى ظاهرة واحدة تميز أسلوبه فهو لا يكاد يبتكر معنى ، وتكاد صوره تكون محصورة في عدد قليل من المعاني يكررها ويلبسها أثواباً شتى .

فهو مثلاً يكثر من تشبيه الخمر بالنار أو النور ويكثر من تشبيه الحب بالجوهر من لؤلؤ ودر وغيرها .

ومن أمثلة هذا أقواله الآتية :

فالخمر يافوتة والطاس لؤلؤة
كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب
فاذا علاها الماء ألبسها حبباً كمثل جلاجل الحجل
ثم شجت فأدارت فوقها طوقاً فدارا
كاقتران الدر بالدر صغاراً وكبارا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شجت فعالت فوقها حبباً متراصفاً كتراصف النظم
ثم شجت فأدارت فوقها مثل العيون
حدقاً ترنو الينا لم تحجر بجفون
ذهباً يثمر درّاً كل إبان وحين
إذا شجها الساقي بماء رأيتها مكللة الأعلى بطوق جمان
حتى اذا مزجت بالماء واختلطت حاك المزاج لها من لؤلؤ فلكا
اذا ما علاها الماء خلت حبابها تفاريق در في جوانبها شتى
فاذا الماء شجها خلت فيها لؤلؤاً فوق لؤلؤ مسلوكا

وأمثال هذه كثيرة تكاد لا تخلو منها قطعة من خمرياته .

ومن استعارته النار أو النور لوصف الخمر قوله :

كأن شعاع الشمس يلقاك دونها الى الشرف الأعلى شعاعاً مطنبا
تلتهب الكف من تلهبها وتحسر العين أن تقصاها
كأن ناراً بها محرشة نهابها تارة ونغشاها
فلو مزجت بها نوراً لمازجها حتى تولد أنوار وأضواء

وهو يصف الخمر بالقدم ، ويكرر هذا المعنى كذلك تكراراً لا ينبغي أن أطيل بعد هذا في إيراد الأمثلة عليه . ومن هذا يظهر أن صوره لم تكن أصيلة ولا غزيرة النبع فالصفة الأصيلة في أبي نواس هي أنه كان ثائراً على مجتمعه وكأن ثورته عليه تتمثل في تحدي مقدساته ومثله ونظمه .

وكان أحياناً يجهر بما يدل صراحة على الثورة المنطوية في أعماقه فمن ذلك قوله :

سأبغي الغنى اما نديم خليفة يقوم سواء أو مخيف سبيل
بكل فتى لا يستطار جنانه اذا نوه الزحفان باسم قتيل
ليخمس مال الله من كل فاجر وذي بطنة للطيبات أكول
ألم تر أن المال عون على التقى وليس جواد معدم كبخيل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من هذا الاستعراض للموضوع الشعري في العصور الثلاثة التي مر بها يمكن أن أقول انه انتقل من تعبير صادق يميزه الولاء للمجتمع في العصر الجاهلي الى تعبير مختلف الوجهة في العصر الأموي وانتهى في العصر العباسي الأول الى تعبير فردي تميزه الثورة على المجتمع . ومن الممكن أن نميز بين طرفي هذا التطور في موضوع الشعر العربي بما يميز به علماء النفس بين الظواهر النفسية للأفراد إذ يصفون بعضهم بالإنطلاق (Extrovert) ويصفون بعضاً آخر بالانطواء (Introvert) فالشاعر الجاهلي كان منطلقاً يعيش في المجتمع ومعه وينظر الى شخصه من خلال نظرته الى الحياة ويعبر عن انفعاله بما حوله تعبيراً يسوده الولاء لمجتمعه سواء كان راضياً عنه أو ساخطاً عليه على حين كان الشاعر في العصر العباسي الأول أقرب ما يكون الى وصف الانطواء ، إذا كان ينظر الى الحياة من خلال شخصه فلا ينفعل إلا طوعاً لمشاعره الخاصة واتجاهاته النفسية التي يميزها الانفصام عن المجتمع . فهو لا يضمر للمجتمع ولاء بل يضمر له الحقد والثورة والسخرية المرة القاسية .

فلأنتقل بعد هذا الى عرض نتيجتين لها علاقة وثيقة بثقافتنا العربية في عصرنا الحاضر .

النتيجة الأولى هي أن تراثنا الثقافي يشتمل فيما يشتمل على هذا الانتاج الأدبي الذي انحدر الينا من عصر بعد عصر ، متزايداً على مر الزمن حتى صار اليوم خزاناً ضخماً تجمعت فيه روافد شتى الألوان والأنواع مما بعثت به العصور المتعاقبة التي مرت بها الأمة العربية في أدوار حياتها الماضية منها عصر الجاهلية الذي ساده الانسجام بين الفرد ومجتمعه ، ومنها العصر الاسلامي الأموي الذي بدأت عوامل الحياة الجديدة تطرأ عليه وأهمها بدء امتزاج العرب بغيرهم من الشعوب ، ثم العصر العباسي الأول الذي اجتمعت فيه أخلاط شتى من شعوب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لم يتح لها بعد أن تنصهر في أمة واحدة جديدة متجانسة ، ثم أخذت هذه العناصر المختلفة تنصهر معاً على توالي القرون وواجهت معاً أحداثاً عنيفة ومغامرات قاسية ، خرجت منها أمة عربية حديثة صارت تزداد انصهاراً وامتزاجاً على مر عدة مئات من السنين حتى انتهت الى هذا العصر الحاضر وقد تم انصهارها معاً أو كاد ، وأصبحت أمة عربية موحدة الوعي والشعور موحدة المثل العليا والقيم الى حد كبير .

فاذا أردنا أن نعرض تراثنا الأدبي على ناشئة هذه الأمة الجديدة كان جديراً بنا أن نذكر أنه تراث مختلف الأنماط منبعث من شتى الانفعالات في العصور المتوالية وأن حياتنا الحاضرة لا يلائمها إلا أن يكون أدبها متميزاً بالولاء الكامل للمجتمع فالتراث الأدبي في مجموعه وإن كان جديراً بأن يتوفر عليه الدارسون المتخصصون ، فان الثقافة العامة للأجيال الناشئة تتطلب أشد التحري في اختيار ما يعرض منه على الناشئة مما يلائم حياتهم الاجتماعية الحاضرة والمنشودة في نهضتنا الحديثة .

وقد أدركت أجيال سابقة من الأمة العربية ضرورة التحري في اختيارها لما يعرض على طلاب الثقافة من ناشئتها ، فعمد كبار أدبائها الى إعداد المختارات الملائمة التي تعزز المثل العليا والقيم التي ينبغي للناشئة أن يتعلقوا بها ومن هذه المختارات حماسة أبي تمام وحماسة البحتري وغيرهما .

فمن الواجب أن يهتم المشرفون على تثقيف الأجيال الناشئة في وقتنا هذا باعداد المختارات الأدبية الجامعة لروائع الشعر العربي بخاصة وأن يهتموا بنشر روائع الأدب العربي والأجنبي بصفة عامة ، مع التحري أن يكون هذا كله مما يلائم روح هذا العصر الذي عادت فيه الوحدة الى الأمة العربية بعد انصهار عناصرها معاً وصار من الطبيعي أن يكون التضامن أو التجاوب كاملاً بين الفرد والمجتمع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والنتيجة الثانية التي أود أن أعرضها تتصل بنقد الأدب ونقاده وهذا ما سقت هذا الحديث من أجله قصدا . فنحن اليوم كما قدمت أمة عربية حديثة موحدة الوعي والمشاعر ومن الطبيعي أن يشعر الفرد منا اليوم بالولاء الكامل لمجتمعه سواء في حال رضاه عنه أو سخطه عن بعض ما فيه . غير اننا في الوقت عينه نعيش وسط عالم انساني أصبح قريباً منا سهل الاتصال بنا ولا نستطيع أن نباعد بيننا وبينه سواء أردنا ذلك أو لم نرده . وأمم العالم تتفاوت في ظروفها وقد يكون منها أمم استقرت فيها الحياة على الولاء الكامل بين الفرد ومجتمعه ومنها أمم أخرى قد تكون في مرحلة زعزعة وبلبلة فهي تتعرض لظاهرة الانفصام بين الأفراد ومجتمعهم . وهناك ما يدل دلالة واضحة على أن بعض اتجاهات الأدب في بعض الأمم تشبه اتجاه الأدب في العصر العباسي الأول من ناحية ثورته وخروجه على مثل المجتمع وقيمه ومن حيث احتقار أدبائها لتلك المثل والقيم .

والأسباب التي تجعلنا نتطلب التحري في اختيار ما يناسب حياتنا الحاضرة من تراثنا الأدبي تجعلنا نتطلب من النقد والنقاد أن يتحروا كذلك في اختيار مذاهبهم النقدية فلا يقبلون مذاهب النقد الأدبي التي ترد الينا من الأمم التي أصاب الانفصام مجتمعها ، فان تلك المذاهب تتعارض ومرحلة الحياة التي نحياها في هذا العصر .

وقد بينا في أول هذا الحديث أن مذهب النقد القائم على شعار « الفن للفن » ليس له معنى في الحقيقة إلا أن يتحلل الأديب من كل اعتبار اجتماعي ، فلا يلتزم بأن يكون الإنتاج منصفاً بالولاء للمجتمع سواء كان راضياً عنه أو متعرضاً لنقده ، ولا يلتزم بأن يكون الانتاج مسايراً للمثل العليا التي يؤمن المجتمع بها أو كافراً بها ولا يهمه في شيء أن يكون الانتاج حاقداً على المجتمع هادماً له أو داعراً ماجناً يسخر من مقدساته وينتهك حرماته ما دام يحقق غاية واحدة وهي خضوعه لشعار « الفن للفن » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إن الأسلوب الفني مفترض في كل انتاج أدبي ، فأهم ما ينبغي أن ينظر اليه في النقد بعد تحقق الأسلوب الفني هو « الموضوع » ومقدار ما ينطوي عليه من ولاء للمجتمع واتصال نفسي عاطف به . وليس معنى ذلك أن يكون الانتاج راضياً عن كل ما في المجتمع بل قد يكون متصفاً بالولاء الكامل له مع نقده وإبداء السخط على بعض مظاهره ، ففي هذه الحالة يكون نقد الأديب لمجتمعه نابعاً من رغبته في تسديده وتوجيهه الى وجهة أفضل ، فيكون سخطه سخط الولي العاطف المتضامن لا سخرية الثائر المنعزل الكاره المتحدي .

أما الأديب الذي لا يأبه الى خير مجتمعه ولا يعتد بقيمه ولا بمثله العليا ويزعم أنه يعيش لنفسه وأنه ينصرف الى فنه من أجل الفن وحده ولا يعنيه ما يؤول اليه أمر المجتمع فلا يهمه ان يبقى متماسكاً ويزيد صلاحاً أو أن يضطرب أمره ويضمحل شأنه ، فان المعنى الحقيقي لموقفه من مجتمعه هو أنه ثائر عليه ويقصد الى هدمه وهذا ما أقصده حين أقول ان مثل هذا الأديب ينطبق عليه وصف الانطوائي الساخر الحانق الذي لا ينطوي على ولاء لمجتمعه .

وهنالك أمثلة لهذا الصنف من الأدباء في أمم العالم الأخرى ممن يدأبون على إثارة الغرائز الهوجاء البدائية التي لا تلائم المجتمعات في وقت نهضتها بل تنطلق فيها حين تدركها الشيخوخة الحضارية وتقترب بها الى الفناء ، وهناك من هذا الصنف من الأدباء من يدعون الى التحلل من الحدود والقيود التي تعارف عليها المجتمع صيانة لكيانه من الانهيار ، فيزيفون لأنفسهم بعض المذاهب الفلسفية كالوجودية وهم لا يدرون ما هو ذلك المذهب الذي يزيفونه لأنفسهم كما فعل غيرهم من قبل حين زيفوا مذهب أبيقور الفلسفي وصرفوا معناه الى التماس اللذات الجسدية وجعلوا ذلك غاية الحياة التي يحيونها . وما أحرانا أن ننفض أيدينا من أدب هؤلاء ومن يريدون من نقادنا أن يحولوا اليه مذهبهم في النقد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فصيحة الفن للفن تبعد بالنقد عن ميدانه الصحيح وهو نقد الموضوع الذي يختاره الأديب ليبرزه بأسلوبه الفني ، فان قيمة الانتاج الأدبي لا تعرف إلا بمقياس مزدوج على الأقل . فجانب من هذه القيمة يرجع الى توافر العناصر الفنية في أسلوبه وهذا شرط أولي لا يمكن أن يسمى الإنتاج أدبياً إلاّ حين يتوافر له ، والجانب الآخر الذي هو الفيصل في المفاضلة بين انتاج أدبي وآخر «الموضوع» الذي لا بد للنقد أن يتحرى الدقة في الكشف عن حقيقته وهل هو موضوع وبيل ينفث السم في المجتمع أو هو مما يبعث الحياة ويطهرها ويسمو بها الى مراتب أعلى ويدفع بها الى مستوى حضاري أجدر بالبناء .

هذا ما أردت أن أعرضه وأعتذر من الإطالة راجياً من زملائي أعضاء المجمع الموقرين أن يكرموني بالتسديد والتسامح الذي هم أهله . وفقنا الله جميعاً إلى خدمة لغتنا الشريفة ومجتمعنا الناهض المجاهد .

محمد فريد أبو حديد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net